التأثيرات الأندلسية في بلاد المشرق من القرن 7هـ 13م الى 9هـ 15م

.Andalusian influences in the Levant of the 13th century to the 15th century

د.سي عبد القادر عمر

جامعة تلمسان

تاريخ الاستلام : 2016/07/15 تاريخ القبول: 2016/09/04

Abstract :

This Study addresses the influences Andalus in the Mashreq cities . Therelations between al-Andalus and the Mashriq were extremely close throughout the Islamic period. Al-Andalus was subject to the Islamic state in the east for a long period. This political dependency encouraged cultural and economic exchange. A result of this closeness was the reciprocal influence of the Mashreq and al-Andalus in the religious, scientific, artistic, and architectural spheres. At first the direction of intellectual influence was from east to west. In later periods al-Andalus reaped the benefits from the spread of Islam, the Arabic language, and various sciences including the religious disciplines by the conquerors. Nevertheless, al-Andalus soon exerted influence on the east after it experienced a major flowering of culture in the intellectual, artistic, and architectural spheres

Key Wold:

Arabic language- the Mashreq cities -Andalus-

كانت علاقة الأندلس بالمشرق الإسلامي وثيقة للغاية طوال العصر الإسلامي فقد ظلت الأندلس بعد الفتح الإسلامي تابعة لمركز الدولة الإسلامية في المشرق مدة زمنية طويلة ،هذه التبعية السياسية شجعت على التبادل الثقافي والاقتصادي ،ونتيجة لهذا التبعية السياسية فقد حدث تأثير متبادل بين بلاد المشرق الاسلامي والأندلس في جوانب حضارية متعددة ،كان ابرزها الجانب الديني و العلمي ،وقد كان التأثير في البداية لصالح المشرق الإسلامي ،حيث استفاد الأندلس من المشرق الاسلامي في فترات متقدمة من خلال دور الفاتحين في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية وشتى العلوم خاصة الدينية منها ، إلاّ أن الاندلس سرعان ما صار مؤثرا في المشرق بعدما حقق ازدهارا حضاريا كبيرا جدا في مختلف المجالات العلمية و المعمارية والفنية، عندما حدثت هجرة عكسية بعد تدهور الأوضاع السياسية و سقوط معظم المدن الأندلسية .

لقد ساعدت عوامل كثيرة على التقارب بين الأندلس و المشرق الإسلامي من أبرزها الرَّحلة خاصة العلمية منها ،حيث كان المشرق الإسلامي أكثر جذبا للرحالة و العلماء من بلاد المغرب و الاندلس بحكم أنه كان يضم الأماكن المقدسة مكة المكرمة و المدينة المنورة و بيت المقدس ،و تأتي بعدها عواصم الأمصار الشهيرة مثل القاهرة و الإسكندرية و دمشق و بغداد و البصرة ،و إن كان الحج وزيارة الأماكن المقدسة هو المطلب الأول و الأساسي من الرحلة فإن طلب العلم و الإجازة يأتي في مركز الثاني بعد الفريضة ، وهكذا أصبحت الرحلة من العوامل الرئيسية للتواصل و التلاقح الحضاري فتعددت المجالات التي مسها التأثير ومنها:

أولا : في المجال الديني

1 انتشار المذاهب السنية

لقد تميزت الأوضاع الدينية في مصر والأندلس في هذه المرحلة بوحدة المذهب السني وانتشاره فقد عرفت الأندلس بعد الفتح الإسلامي انتشار مذهب الأوزاعي،[1] الذي أدخله إلى الأندلس صعصعة بن سلام المتوفى سنة 192هـ/807م وهو فقيه أندلسي من أصحاب الأوزاعي.[2]

أما في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل فقد انتشر المذهب المالكي في الأندلس وكان أول من أدخله هو أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المتوفى سنة 193هـ/760م[3]

إنّ انتقال المذهب المالكي إلى الأندلس يعود بالدرجة الأولى إلى رحلة الأندلسيين إلى الحجاز وعودتهم بأخبار عن مالك بن أنس وفضله وجلال قدره، هذه الأخبار جعلت الأندلسيين يميلون

أكثر إلى هذا المذهب، ومن أبرز الّذين رحلوا إلى الحجاز وأخذوا عن الإمام مالك، الغازي بن قيس وهو أوّل من أدخل "الموطّأ" وقراءة نافع إلى الأندلس، ومنهم سعيد بن أبي هند من طليطلة رحل ولقي مالكا وسمع منه[4]

أمّا في عهد الدولة الموحدية فقد عرف المذهب المالكي تراجعا حيث عمل الموحدون على تشجيع المذهب الظاهري الذي ينسب إلى ابن حزم الأندلسي،[5] والذي أسس مذهبه على

مبادئ أساسية أهمها الالتزام بالنص قرآنا وسنة ثابتة وإنكار القياس الشرعي ومعارضة الفرق الإسلامية ،[6] وبعد سقوط دولة الموحدين وقيام دولة بني نصر في الأندلس عاد المذهب المالكي للانتشار من خلال إقامة المؤسسات التعليمية واستقدام كبار فقهاء المالكية، وأصبحت كتب المالكية هي أساس التدريس مثل الموطّأ والتلقين لعبد الوهاب البغدادي والعتيبة للعتبي،[7] والمدونة للإمام سحنون والرسالة لأبي زيد القيرواني المتوفى سنة 386هـ/966م.

أمّا في مصر فقد سادت المذاهب السنية الأربعة منذ بداية عهد الدولة الأيوبية حيث عمل الأيوبيون على محاربة المذهب الشيعي الذي استمر في بعض المناطق رغم سقوط الدولة الفاطمية وذلك عن طريق إقامة العديد من المدارس التي اهتمت بتدريس المذاهب السنية ، وفي عهد المماليك استمر سلاطينها في نفس السياسة المتمثلة في محاربة المذهب الشيعي فقد قام السلطان الظاهر بيبرس بإصدار مرسوم يحرم فيه كل المذاهب ما عدا المذاهب السنية الأربعة مع عدم قبول الشهادة ولا يتولى القضاء والخطابة أو التدريس إلا من كان على المذاهب السنية ،[8] وفي الوقت نفسه قام بتعيين أربعة قضاة للمذاهب الأربعة .[9]

نتيجة لهذا الاهتمام بالمذاهب السنية فقد انتشرت مجموعة من الكتب يتدارسها الطلبة في المدارس ومنها كتاب مجمع البحرين والجامع الكبير ومختار الفتوى لطلبة الحنفية،[10] أمّا كتب المالكية فهي مختصر ابن الحاجب ومختصر خليل[11]، وكتب الشافعية مثل الوجيز للغزالي والمحرر لرفاعي، والمسند للإمام الشافعي، والروضة لجمال الدين الأسنوي، أما كتب الحنابلة فأهمها النهاية الصغرى لابن رزين والمسند للإمام أحمد.

ونتيجة لهذه السياسة التي اتبعها الأيوبيون والمالك في مصر أو تلك التي اتبعها أهل الأندلس فقد اختفت باقي المذاهب خاصة الشيعي رغم بعض المحاولات سواء في الأندلس أو مصر لنشر أفكار التشيع، إلا أن هذه الأفكار لم تلق تأييدا أو رواجا مما فسح المجال أمام استحواذ المذاهب السنية هذه الوحدة المذهبية جعلت علماء الأندلس يرتحلون إلى مصر ويزاولون

وظائف عديدة منها بالدرجة الأولى قضاء المالكية، كما ساهمت هذه الوحدة في تمتين الروابط الثقافية والدينية بين البلدي

2 انتشار الطرق الصوفية:

لقد نشأ التصوف في القرن الأول الهجري وهو بمعنى الزهد والانصراف عن الدنيا ومتاعها والعناية بأمور الدين وغايتها الظفر برضوان الله تعالى، وكان الزهد هو النواة الأولى للتصوف في القرن الثاني للهجرة، ثمّ تطور بعد ذلك حتى وصل في القرن السابع إلى مفهوم اجتماعي بعد خروجه عن مفهومه الديني المحض، وقد استخدم المتصوفون المؤسسات الدينية من مساجد وزوايا لنشر دعوتهم

دخل التصوف إلى الأندلس عن طريق المهاجرين المشارقة أو عن طريق الحجاج والرّحالة الأندلسيين، فبعد اطلاعهم على حركة التصوف في المشرق نقلوا بعض مصنفات التصوف إلى الأندلس، وقد ازدهرت حركة التصوف في الأندلس بعد ضعف دولة الموحدين وقيام دولة بني نصر حيث زاد اعتقاد الناس برجال التصوف فوجد هؤلاء الظروف المناسبة لنشر دعوتهم خاصة وأن السلاطين قربوا إليهم هؤلاء

المتصوفة وقاموا بتشييد الزوايا والربط وتحبيس الأموال والغلات عليها[12] ومن أبرز الطرق الصوفية التي انتشرت في مصر .

– الطريقة القادرية: التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني، [13] والذي اعتمد على التصوف السني وقد تفرع عن هذه الطريقة طرق صوفية أخرى عديدة في المغرب والمشرق

– الطريقة الرفاعية: أسسها الشيخ أحمد بن أبي الحسن بن أبي العباس المعروف بابن الرفاعي المتوفى سنة 578هـ/1191م بالعراق ثم أدخلت إلى مصر ولقيت رواجا كبيرا خاصة في عهد المماليك[14]"

– الطريقة الأحمدية: أسسها السيد أحمد البدوي المتوفى سنة 675هـ/1276م ارتحل من المغرب واستقر بمصر وأسس طريقته[15] .

– الطريقة الشاذلية: أسسها الشيخ أبي الحسن الشاذلي الذي تعود أصوله إلى المغرب، رحل الى مصر

واستقر بالإسكندرية وأسس طريقته، توفي سنة 656هـ/1258م، وقد عرفت هذه الطريقة رواجا كثيرا في الأندلس حيث اعتنقها العديد من الفقهاء وقاموا بنشرها ومنهم أبو العباس المرسي أحد تلامذة أبي الحسن الشاذلي، وابن عباد الرندي صاحب كتاب غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية .(16)

إنّ انتشار التصوف بمصر ووجود كبار شيوخ التصوف جعل الكثير من الأندلسيين وخاصة رجال التصوف يفضلون زيارة مصر أو الاستقرار بها، ومن هؤلاء ابن سبعين من أهل مرسية وأبو الحسن الششتري صاحب كتاب المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية، (17) ومنهم كذلك أبو الحسن علي بن أحمد الحراني الأندلسي من أعمال مرسية كان أعلم الناس بمذهب مالك من مؤلفاته اللب المقفل على فهم القرآن المنزل توفي في بلاد الشام سنة 637هـ/1235م، ومن رجال التصوف الّذين رحلوا إلى المشرق وكان لهم آثار بارزة، الفقيه علي بن أحمد بن حديدة الأندلسي الّذي أخذ التصوف عن علماء الأندلس ثم رحل إلى بجاية ومنها إلى المشرق وقد عمل على وعظ الناس وإقامة الزوايا في أماكن عديدة، توفي ببيت المقدس سنة 719هـ/1319م .(18)

لقد أثر هؤلاء تأثيرا كبيرا في المجتمع المصري من خلال ممارستهم للتدريس في الزوايا والربط فزادت فكرة الاعتقاد في المشايخ والأولياء، ولم تقتصر ظاهرة التبرك على العامة بل حتى السلاطين أيضا، ومثال ذلك الظاهر برقوق الذي كان له اعتقاد كبير في طلحة المغربي حيث أقامه في قلعة الجبل، توفي سنة 694هـ/1294م، ودفن في الموضع الّذي هو الآن تربة الملك الظاهر برقوق، أمّا السلطان الظاهر بيبرس فقد كان له اعتقاد في الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى المهراني حيث بنى له زاوية وحبس عليها أرضا زراعية، أما السلطان الملك الناصر بن محمد بن

قلاوون فقد أنشأ خانقاه سرياقوس وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفي وبنى بجانبها مسجدا وحمّاما .

أما في الأندلس فقد ساد هذا الاعتقاد أيضا حيث كان السلطان محمد الأول بن الأحمر يتوجه إلى الصوفي ابن مروان الياجنسي في وادي آش ليطلب منه أن يعينه بدعواته خلال نزاعه مع النصارى[19]

ومما زاد في التقارب بين الأندلس والمشرق في مجال التصوف هو انتشار نفس الكتب الخاصة بالتصوف والتي تداولها الطلبة والمريدون في البلدين منها رسالة القشيري وكتاب إحياء علوم الدين للغزالي وكتاب الشفاء للقاضي عياض.

هذا الانتشار الواسع للتصوف في البلدين زاد من توثيق العلاقات الروحية والدينية حتى أن بعض المتصوفة الّذين رحلوا من الأندلس الى المشرق شاركوا وأتباعهم في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم كما هو حال الششتيري الّذي حارب الصليبيين في حملة لويس التاسع سنة 647هـ/1249م. [20]

إن التأثير الأندلسي والمغربي كان واضحا في الحركة الصوفية في المشرق خاصة وأن كبار مشايخ التصوف ترجع نشأتهم إلى الأصل الأندلسي أو المغربي.

إن انتشار التصوف من الأندلس إلى المشرق كان عن طريق الهجرة بالدرجة الأولى ويؤكد عدم قدرة الحدود السياسية على الوقوف في وجه الانتشار الثقافي بصفة عامة والتصوف بصفة خاصة.

ثانيا: التأثيرات العلمية

لقد مثلت التأثيرات العلمية أبرز مظاهر العلاقات الثقافية بين الأندلس وبلاد المشرق في عهد المماليك، وقد ظهر هذا التأثير في جوانب عديدة من خلال حركة العلماء الأندلسيين إلى مصر وبلاد الشام، حيث شارك العديد منهم في وظائف مختلفة فقلما نجد مجالا يخلو من الأندلسيين الّذين ترك بعضهم آثارا علمية خالدة في عدد من العلوم ومن أبرز تلك المجالات.

1. في مجال التدريس

كانت مدينة القاهرة تشهد حركة تعليمية نشيطة مما دفع بالأندلسيين إلى الارتحال إليها للاستفادة من علمائها، و كان من أبرز المرتحلين العلماء والفقهاء الّذين أفادوا الطلبة بعلمهم الغزير ومعرفتهم الواسعة لشتى العلوم، خاصّة وأن الأندلس كانت قد شهدت نهضة علمية رائدة فأصبحت قرطبة وغرناطة مراكز علمية معروفة بعلمائها، ونظرا للعدد الكبير من الأندلسيين الّذين اشتغلوا بالتدريس في بلاد المشرق نحاول الاقتصار على بعض النماذج ومنهم.

أبو عبد الله محمد بن سراقة الشاطبي، رحل في طلب العلم فزار بغداد وحلب وتولى مشيخة دار الحديث بحلب ومشيخة دار الحديث الكمالية بالقاهرة، توفي سنة 662هـ/1263م. [21].

أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله الاندلسي ارتحل إلى الاسكندرية وزار دمشق كان مفتيا تولى التدريس بالرباط الناصري كما درّس بالفاضلية بمصر وكان شيخا بالتربة الصالحية، توفي سنة 685هـ/1286م. [22]

الشاعر النحوي محمد بن عبد الله بن لب من أهل ألمرية رحل إلى المشرق واتخذ من القاهرة موطنا له تولى التدريس بالمدرسة الصالحية بالقاهرة ونال مكانة خاصة بين أهل العلم والصلاح حتى صاريُدعى بأبي عبد الله النحوي، توفي سنة 734هـ/1324م

فتح الدين بن سيد الناس الأندلسي الأصل رحل إلى مصر ودرس الحديث بالمدرسة الظاهرية، توفي بمصر سنة 734هـ/1333م [23]

كما استقطبت بلاد الشام عددا هائلا من الأندلسيين الذين اشتغلوا بالتدريس ومنهم:

محمد بن عبد الله بن مالك الطائي أبو عبد الله صاحب التسهيل والألفية أخذ عن علماء الشام العربية والنحو فامتزجت لديه الثقافة الأندلسية بالمشرقية كان على المذهب المالكي بالأندلس ثمّ تحوّل إلى الشافعية ببلاد الشام تولى التدريس بالمدرسة العادلية بدمشق، توفي سنة 672هـ/1273م محمد بن سعيد بن محمد بن هشام بن الجنان الإمام العالم فخر الدين

الشاطبي النحوي رحل إلى مصر وأخذ عن علمائها ثمّ أقام بالشام وتحول إلى المذهب الحنفي وتولى التدريس بالمدرسة الإقبالية الحنفية بدمشق، توفي سنة 675هـ/1276م .[24]

زكي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز الإشبيلي المالكي محدث زاهد سمع بمصر ودمشق وحلب أفتى ودرّس وتولى مشيخة دار الحديث الظاهرية بدمشق توفي سنة 687هـ/1288م.

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرج اللخمي الإشبيلي كان من كبار أئمة الحديث رحل إلى دمشق وتولى التدريس بالجامع الأموي وأخذ عنه خلق كثير، توفي سنة 699هـ/1299م. [25]كما تولى بعض الأندلسيين ببلاد المشرق الإمامة والخطبة ومنهم الفقيه محمد بن أحمد بن أبي الوليد بن أبي عمرو الّذي هاجر إلى بلاد الشام واستقر بدمشق وتولى إمامة المالكية بالزاوية المالكية بالجامع الأموي، توفي سنة 747هـ/1342م

2. في مجال القضاء

لم يقتصر دور الأندلسيين على التدريس والإمامة بل تولّى البعض منهم منصب القضاء خاصّة قضاة المالكية نظرا لان هؤلاء المهاجرين كانوا على المذهب المالكي المنتشر في بلاد الأندلس ومن هؤلاء عبد الرحمن بن خلدون والذي تولى منصب القضاء بمصر سنة 786هـ/1384م

أبو عبد الله محمد بن علي بن الأزرق الذي كان قاضيا للجماعة في كل من مالقة وغرناطة ثم رحل بعد سقوط هذه الأخيرة لطلب النجدة واستقر بمصر وتولى القضاء المالكي سنة 896هـ

إسماعيل بن محمد بن محمد بن علي بن هاني اللخمي الغرناطي، أخذ عن شيوخ غرناطة ثم ارتحل إلى المشرق وأخذ عن ابن حيان بالقاهرة ثمّ توجّه إلى الشام وأقام بمدينة حماة وتولى القضاء المالكي بها، توفي سنة 771هـ/1369م. [26]

محمد بن يحي الأندلسي اللبسي، أخذ عن الحافظ بن حجر إمام علوم الفقه والنحو وأصول الدين تولى قضاء المالكية بحماة وتوفي ببرسا من بلاد الروم سنة 884هـ/1487م

شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن مهاجر الوادي آشي الحنفي سكن طرابلس الشام ثم رحل إلى حلب وأقام بها وتولى القضاء توفي سنة 739هـ/1340م.[27]

3 –في مجال الطب :

لقد اهتم الأندلسيون بالعلوم العقلية اهتماما كبيرا وبرز منهم العديد من العلماء وخاصة في مجال الطب والصيدلة، وقد هاجر الكثير من هؤلاء الأطباء إلى المشرق وساهموا بشكل كبير في ازدهار العلوم الطبية بل وصل بعضهم إلى رئاسة المستشفيات ومنهم من عمل كمعتمد عند السلاطين ومن هؤلاء.الطبيب عبد المنعم الجلياني الذي خدم صلاح الدين الأيوبي لفترة زمنية طويلة، ومن الأطباء الذين قدموا خدمة كبيرة للمجتمع المصري الطبيب ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن البيطار الذي كان أوحد زمانه في معرفة النبات، و أبو تمام غالب بن علي بن محمد اللخمي الشقوري الّذي عمل بالبيمارستان بالقاهرة، وأبو العباس أحمد المعروف بابن الرومية من أهل إشبيلية أتقن علم النبات ومعرفة الأدوية خدم بمصر الملك العادل أبا بكر.[28] ومن الاطباء الرئيس أبو مروان موسى بن ميمون القرطبي اليهودي الذي أسلم في المغرب وحفظ القرآن ثم رحل إلى مصر وخدم الملك الناصر صلاح الدين وولده الملك الأفضل علي ، ومنهم الطيب يوسف بن يحي الذي تحول إلى تاجر طاف بالعراق والهند وفارس وجمع أموال طائلة خصصها لبناء مركز لتعليم الطب والمداواة.[29]

إنّ دور الأندلسيين لم يقتصر على هذه الجوانب بل تعدّت اهتماماتهم إلى مجالات أخرى كالجانب السياسي ومن الّذين ساهموا في هذا المجال سلمان بن عبد الله بن يوسف الإيبيري ثم الحلبي الشافعي من أصدقاء ابن جابر وأبو جعفر الرعيني الغرناطي، انظم في خدمة الوزير الجمال الاستادار والسلطان يلبغا الناصري، ولما قبض على الوزير فر إلى اليمن وتوفي سنة 833هـ/1429م.

أما في الميدان العسكري فإن مساهمة الأندلسيين والمغاربة كانت كبيرة جدا، فقد شارك العديد منهم في محاربة النصارى من خلال الحملات الصليبية وحملات المغول، فقد شارك في جيش

صلاح الدين أكثر من ثلاثة آلاف رجل، أمّا في عهد المماليك فقد قاد حملة لفتح جزيرة قبرص في عهد الظاهر بيبرس قائد من أصول أندلسية وهو جمال الدين مكي بن حسون وذلك سنة 669هـ/1270م [30].

إنّ التأثير الأندلسي في بلاد المشرق لم يقتصر على مصر وبلاد الشام بل تعدّاه إلى أقاليم أخرى إسلامية كانت تابعة للدولة المملوكية ومنها بالدرجة الأولى الحجاز خاصة مكّة المكرمة والمدينة المنوّرة باعتبارهما أماكن مقدسة، وكان الأندلسيون يقصدون هذه الأماكن للمجاورة ونعني بها البقاء بجوار الحرمين الشريفين وكان أغلب هؤلاء من العلماء والطلبة وقد مارس بعضهم وظيفة التدريس والإمامة ومنهم أبو جعفر بن الزبير والفخري التوزري الفقيه الذي ناظر علماء مصر والحجاز استوطن المدينة المنورة حتى وفاته سنة 715هـ/1315م. [31].

ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الشهير بابن غصن الإشبيلي الإمام الزاهد المقرئ العارف بمتون الحديث وأحكامه أقرأ القرآن بمكة والمدينة، توفي سنة 723هـ/1323م.

ومنهم أبو بكر محمد بن يوسف ابن مسدي المتوفى سنة 677هـ/1274م رحل إلى الحجاز وتولى التدريس بمكة والمدينة وتخرج على يده عدد من الفقهاء منهم علي بن خليل المالكي، له كتاب" البشارة بثواب الحج والزيارة "

ومن الأندلسيين الذين درسوا بالمسجد الحرام أبو عبد الله محمد بن غالب بن يونس الحياني المتوفى سنة 702هـ/1301م وأبو بكر محمد بن حجاج أبو مطرف الإشبيلي والذي كانت له حلقة بالمسجد الحرام توفي سنة 704هـ/1302م . [32].

لقد ساهم علماء الأندلس في الحياة العلمية في بلاد الحجاز خاصّة وأنهم كانوا يرتحلون شهورا عديدة قبل الحج من أجل المجاورة والحرص على أخذ العلم ومجالسة العلماء.

وصفة عامة فقد ضمّت الهجرة الأندلسية إلى المشرق فئات مختلفة منهم العلماء والطلبة وحتى أصحاب الحرف و المهن وبالتالي فقد مارسوا وظائف مختلفة منها التدريس والقضاء والإمامة و

أثروا هؤلاء الأندلسيون وتأثروا بالطبيعة التي نزلوا بها فمنهم من تحول إلى المذهب الشافعي أو المذهب الحنفي المنتشرين بالمشرق.

إن تولى الأندلسيين لهذه الوظائف ذات الأهمية كبيرة يدل على التسامح والتعاون والتعاطف الذي كان يتلقاه أهل الأندلس من اخوانهم في البلاد الإسلامية ،كما يدل أيضا على المكانة و المستوى العلمي الذي وصل اليه أهل الأندلس رغم الظروف السياسية الصعبة التي مر بها الأندلس و المتمثلة في التهديد الصليبي المستمر .

ثالثا: التأثيرات الفنية والمعمارية

1 :التأثيرات الفنية:

لقد شهدت بلاد الأندلس تطوّرا و ازدهارا كبيرا في المجالات فنية مختلفة ،قد انتشرت الموشحات و الأزجال وتعددت مجالس الغناء و الموسيقى .

فالموشح هو فن جديد نشأ في الأندلس تخلص من الأوزان الشعرية والقافية المعهودين ،وقد ظهر هذا النوع بعد اختلاط العرب بغيرهم من سكان الأندلس وتعرفهم على آدابهم وأغانيهم الشعبية المتحررة من القوافي، وقد انتشرت الموشحات بعد أن لقيت الاستحسان والقبول من أهل الاندلس، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "وأمّا أهل الأندلس كلما كثر الشعر في قطرهم استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه الموشح"، هذا النوع الشعري رغم أنّه أندلسي النشأة إلاّ أنّه يحتوي على مؤثرات شرقية وغربية[33]

لقد ظهر بالأندلس العديد من الوشاحين ساهموا في تطور هذا الفن وإخراجه من منطقته الضيقة إلى باقي بقاع العالم الاسلامي، حيث انتقل إلى المشرق بعد بلوغه مرحلة النضج وذلك عن طريق المهاجرين الأندلسيين، وقد كان القاضي ابن سناء الملك الانطلاقة الحقيقية لفن الموشحات في المشرق ومن نظمه:

حبيبي ارفع حجاب النور عن المدار
تنظر المسك على كافور في جلنار .[34]

وقد تطور أكثر هذا النوع من الشعر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، ومن أبرز الوشاحين في مصر في العهد الأيوبي عثمان بن عيسى بن منصور بن محمد البلطي الشاعر والمؤرخ اشتغل بتدريس النحو في مصر ومن مؤلفاته كتاب العروض الكبير وكتاب العروض الصغير، ومن الوشاحين في مصر السراج عمر بن مسعود الكناني الحلبي المتوفى سنة 740هـ/1339م والشيخ صدر الدين محمد بن الوكيل ومن نظمه

بحرُ الهوى يُغرق من فيه جهدهُ عامْ
وناره تحـــــرِق من همّ أو قد هامْ
وربمـــــــا يُقلِق فتىً عليه نـــــــــــام[35]

لقد تعدّدت أغراض الموشحات كما هو الحال في الأندلس إلا أن الغزل والطرب كانت هي الموضوعات الرئيسية ولهذا اقترن الموشح بالغناء والألحان ثم تطور ذلك إلى التصوف، هذا التنوع جعل الموشحات تنتشر في بلاد المشرق انتشارا واسعا خاصة في بغداد ومصر رغم الاختلافات مع أهل الأندلس في الأغصان والأبيات لأن لكل منطقة لهجتها ولغتها فالمشرقي لا يشعر بالبلاغة التي في شعر الأندلسيين والعكس كذلك.

أما الزجل فهو فن عالمي جديد ظهر بالأندلس يشبه الموشح ينظم باللهجة العامية ويُصاغ في فقرات تسمى أبياتا ويمتاز بتكرار القافية في نهاية كل بيت ،[36]

ولما انتقل هذا الفن إلى المشرق وجد بيئة مناسبة للانتشار لذلك نشط الزجالون وزاحموا الشعراء في شتى أغراض، الشعر فنظموا في الغزل والخمريات ووصف الحوادث العامة والحروب ورثاء الدول .ومن العوامل التي أدّت إلى رواج الزجل في مصر في عهد المماليك هو أن الملوك كانوا من العجم وهم أقرب إلى فهم الشعر العامي أكثر من الشعر الفصيح، وبالتالي كانوا يشجعون الزجالين كما انتشر التصوف على نطاق واسع مما شجّع على تطور الزجل حيث أصبح التصوف أحد الأغراض الرئيسية له، ومن أشهر الزجالين في المشرق في هذه المرحلة خلف الغباري المتوفى أوائل القرن التاسع الهجري في عهد السلطان برقوق و من نظمه في مدح الأشرف شعبان

ضم الأشرف قبر ليت شعري هو لقنديل نور ضياه جامع

أو صدف فيه خالص الجوهر أو فلك فيه غاب قمر طالع [37]

ومن الزجالين علاء الدين بن مقاتل الحموي وبدر الدين الزيتوني الّذي شهد عهد قايتباي والغوري، توفي سنة 924هـ/1527م، ومنهم أحمد بن عثمان اللامشاطي الأديب شهاب الدين كان قيم الشام في وقته في الأزجال توفي سنة 725هـ/1426م . [38]

أما في مجال الغناء والموسيقى فقد كان للمشارقة دور بارز في تطور الموسيقى في الأندلس وذلك بعد انتقال عدد من رجال الموسيقى والغناء إلى الأندلس بعد الفتح الإسلامي وكان من أبرزهم "زرياب" الّذي حل بالأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط حيث ساهم بشكل كبير في تطور الموسيقى خاصة بعد أن أسس مدرسة لتعليم الغناء ومعالجة الأصوات ،[39]

ومع التطور الحضاري الّذي شهدته الأندلس وخاصة في مجال الفن والموسيقى وبعد أن هاجر العديد من الأندلسيين إلى بلاد المشرق فإن التأثير الأندلسي انتقل أيضا الى المشرق خاصّة وأنّ بين هؤلاء المهاجرين عددا من أهل الفن والموسيقى، ورغم أنهم لم يتخذوا من الموسيقى مصدرا للرزق إلا أنهم ساهموا في تطورها في البلاد التي حلوا بها ومن هؤلاء الطبيب الأندلسي أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الحكيم والأديب من أهل ألمرية رحل إلى المشرق وإلى جانب مهنته الطبية كان يعزف الموسيقى ويضرب على آلة العود، ومنهم أبو زكرياء يحي بن إسماعيل البياسي رحل إلى المشرق وسكن دمشق كان عارفا بالموسيقى وتمكن من صنع آلة تسمى الأرغن كما اشتغل بتدريس علم الموسيقى. [40]

إن بعد المسافة بين الأندلس وبلاد المشرق لم يمنع من وصول التأثير الأندلسي خاصة في مجال الموسيقى الأندلسية هذا النوع انتشر في مناطق الحوض البحر المتوسط بما فيها بلاد المشرق الاسلامي والذي أخذ صبغة عالمية.

2. التأثيرات المعمارية

لقد تميزت العمارة في الأندلس وبلاد المشرق بالتطور والازدهار وذلك بفضل حركة البناء والتشييد في المجالات المختلفة كالقصور والمساجد والمدارس والقباب والأتربة وغيرها، حيث كان السلاطين يتنافسون في تخليد أسمائهم من خلال تلك المؤسسات وقد بدأ التأثير الأندلسي يتدفق على المشرق وخاصّة مصر منذ بداية الهجرة الأندلسية ،فقد تحوّل ميناء الإسكندرية إلى محطّة رئيسية للسفن القادمة من الأندلس بعد استيلاء النصارى على بعض المدن الأندلسية.

وقد انتقلت خصوصيات العمارة الأندلسية إلى المشرق عن طريق هؤلاء المهاجرين الذين كان هدفهم الزيادة في العلم أو زيارة الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج، أو الفرار بدينهم بعد سيطرة النصارى على مدنهم، كما كان للتجار الاندلسيين أيضا دور في نقل تلك الخصوصيات الاندلسية الى بلاد المشرق الاسلامي من خلال رحلاتهم التجارية المتكررة.[41]

وقد زادت التأثيرات الأندلسية في عهد المماليك بعد أن نشطت حركة الهجرة و التي ضمّت عددا من الحرفيين والمهندسين والفنانين، ونظرا لاهتمام سلاطين المماليك بالعمران فقد استخدموا هؤلاء المهاجرين في البناء والزخرفة والصناعات المختلفة مما ساعد على انتقال الخصوصيات المعمارية الأندلسية خاصة في مجال الزخرفة، ومن أهم التأثيرات الأندلسية في العمارة المملوكية العقود المنفوخة المتجاورة والعقود التوأمية في الواجهات والمآذن الموجودة في قبة فاطمة خاتون وضريح المنصور قلاوون وفي جامع جاي اليوسفي.[42]

كما تظهر التأثيرات أيضا في القباب التي تظهر في جامع ابن طولون وكأنها منقولة من قرطبة و تظهر أكثر في الترميمات التي أجريت على هذا المسجد في العهد المملوكي خاصة المئذنة وهي نفس الطابع للعقود القرطبية.[43].

ومن مظاهر هذا التأثير مئذنة مدرسة المنصور قلاوون التي تحتوي على بعض العقود المتجاورة وهي شبيهة بتلك الموجودة في مئذنة جامع إشبيلية وفي بعض مآذن الموحدين [44] ، ومن التأثيرات الأندلسية في المساجد المملوكية نوع من القباب قسمت القبة إلى تقاسيم هندسية متعددة تشعبت خطوطها من كل ركن من أركان القبة وهذا الشكل يظهر في قباب قرطبة وسرقسطة

وطليطلة.[45]. كما تظهر الزخارف الجصية الأندلسية في مئذنة الناصر محمد بن قلاوون وضريح الأميرين سلار سنجر الجاولي.إن التشابه المعماري يبرز تلك التأثيرات الأندلسية التي وصلت الى بلاد المشرق عن طريق المهاجرين الذين وظفوا مهارتهم الفنية في بناء المساجد والمدارس والقباب وتركوا فيها بصماتهم الفنية الأندلسية والتي تمثل مظهرا من مظاهر ذلك الترابط الثقافي بين المغرب والمشرق الاسلاميين.

ومن خلال هذه الدراسة للتأثيرات الأندلسية في بلاد المشرق يتضح لنا أن حركة التواصل كانت مستمرة ولم تقتصر على فترة زمنية معينة، إنما أصبحت ظاهرة متميزة لعلماء الأندلس في زيارة بلاد المشرق حيث استقر بعضهم يمارسون وظائف وحرفا بينما عاد البعض الآخر الى بلادهم.إن هؤلاء المهاجرين وخاصة العلماء ساهموا في إثراء الحياة الفكرية في البلاد التي رحلوا إليها من خلال تقلدهم وظائف مختلفة في التدريس والقضاء والإمامة غيرها.

ومن جهة أخرى فقد ساهم بعض الحرفيين في نقل بعض المهارات والمميزات الأندلسية في المجال الفني والمعماري الى بلاد المشرق وبالتالي فإن التأثير الأندلسي كان واضحا في جميع المناطق التي حلوا بها الاندلسيين فقد أثروا وتأثروا.

الإحالات:

1. – الاوزااعي: هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي، إمام أهل الشام ولد سنة 88هـ/707م بضواحي دمشق ورحل إلى اليمن والحجاز والعراق، توفي سنة 157هـ، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج18، تح أحمد الارناؤوط و تركي مصطفى ،ط1 دار إحياء التراث العربي بيروت 2000م ، ص 123– ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،تح عبد القادر الارناؤوط و محمود الأرناؤوط ،ج2، دار ابن كثير بيروت 1986م ص 156 – عبد العزيز سيد الأهل، الأوزاعي فقيه أهل الشام، دار التحرير، القاهرة 1966 م ، ص 28.
2. – الحميدي أبو عبد الله، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح: صلاح الهواري، المكتبة المصرية، بيروت 2004 م ، ص 236..
3. – المقري أبو العباس، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ج4، تح احسان عباس ،دار صادر بيروت ، ص 60– عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج4 مطابع فضالة المحمدية، المغرب 86 19م ص 55 .

[4]. أحمد بكير محمود، المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب، دار قتيبة، بيروت 1990 م ، ص32- حوالف عكاشة، جهود فقهاء المالكية بالأندلس إلى نهاية القرن الرابع هجري، أطروحة الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران 2007، ص .

[5]- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم فارسي النسب ولد بقرطبة سنة 384هـ/914م صاحب المصنفات العديدة توفي مشردا في بلده سنة 456هـ/1064م ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 565- ابن العماد، شذرات، ج5، ص239- عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي، زهرة الإعلام العربي، القاهرة 1988 م ، ص

[6].- جودت هلال ومحمد صبح، قرطبة في التاريخ الإسلامي ،الهيئة المغربية للكتاب 1988 م ، ص 99.

[7].- العتيبي: محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عتيبة، فقيه ومحدث له عدة كتب في الفقه توفي سنة 255هـ، ينظر: المقريزي تقي الدين ، المقفى الكبير، ج5،تح محمد العلاوي ،ط1 دار الغرب الاسلامي بيروت 1991 م ، ص206- الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص30- الحميدي، جذوة المقتبس، ص46

[8].- المقريزي ،المواعظ و الاعتبار في الخطط و الاثار ، ج2،تح محمد زينهم و مديحة الشرقاوي ،مكتبة مدبولي القاهرة 1998 م ص344- سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر و الشام ،دار النهضة العربية القاهرة 1966 م ،ص 319

[9].- القلقشندي ابو العباس ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج4،المطبعة الاميرية القاهرة 1913 م ص 36

[10]. المقريزي، الخطط، المصدر السابق ج2، ص312

[11]. -ألفه الشيخ خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المالكي المصري، وهو مصنف في الفقه المالكي استغرق في تأليفه 25 سنة، ينظر: ابن مريم أبو عبد الله ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ،تح محمد بن أبي شنب ،المطبعة الثعالبية الجزائر 1907م ص56.

[12].- سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 321

[13].- ابن كثير ابو الفداء ، البداية والنهاية، ج12، دار التقوى ص 268- ابن العماد، شذرات، ج4، ص198- عبد الكبير الفاسي، تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين، تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996 م ، ص131032.

[14].- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة ،ط1 تح محمد حسين شمس الدين ،دار الكتب العلمية بيروت 1992 م ، ج6، ص 92

[15].- ابن تغري بردي، النجوم، المصدر السابق ج7، ص252- ابن العماد، شذرات، المصدر السابق ج7، ص602- أحمد عيس، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت 1981م ، ص04.

[16].- هو كتاب شرح فيه حكم ابن عطاء الله السكندري والتي ألفها تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري المتوفى سنة 709هـ/1309م تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي، ينظر ابن العماد ،شذرات ،المصدر السابق ج8 ص 36 – ابن حجر العسقلاني ،الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج1، دار الجبل بيروت (دت) ص 273.

[17].– الغبريني لأبو العباس ، عنوان الدراية فمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ،تح ابن أبي شنب ط 1 دار البصائر الجزائر ،2007 م ، ص110– المقري، نفح الطيب، المصدر السابق ج2، ص185

[18]. –ابن حجر، الدرر الكامنة، المصدر السابق ، ج3، ص 12.

[19].– أحمد الطوخي ،مظاهر الحضارة في عصر بني الأحمر ،مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية 1997 م ، ص 344.

[20].– ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، تح محي الدين الخطيب ،المطبعة السلفية القاهرة ، ص97– أحمد الطوخي، المرجع السابق، ص 310.

[21].– المقري، نفح الطيب، المصدر السابق ج2، ص 63– الصفدي، الوافي بالوفيات، ج1، ص 167– ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص 533

[22]. – المقريزي، المقفى الكبير تح محمد العلاوي ،دار الغرب الاسلامي بيروت 1991 م ، ج5، ص 268– ابن القاضي المكناسي، درة الحجال في اسماء الرجال ، ج2 تح محمد الأحمدي ،ط1 دار التراث القاهرة 1970 م ، ص244

[23]. –جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة ، ج1تح محمد ابو الفضل دار إحياء الكتب العربية 1968 م ، ص 358– ابن العماد، شذرات، ج8، ص 189.

[24]. –الصفدي، الوافي بالوفيات، ج1، ص 145 – المقريزي، المقفى الكبير، ج5، ص675.

[25].– ابن جابر، برنامج الوادي آشي، تح محمد الحبيب الهيلة تونس 1981 م ص 116– المقري، نفح الطيب، ج2، ص 528– المقريزي، المقفى الكبير، ج1، ص 561.

[26].– ابن حجر، الدرر الكامنة، المصدر السابق ج1، ص380– أحمد الطوخي، المرجع السابق، ص 231.

[27].– ابن حجر، الدرر الكامنة، المصدر السابق ج1، ص 182– الصفدي، الوافي بالوفيات، المصدر السابق ج7، ص 91

[28].– ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الاطباء ،تح نزار رضا ،دار مكتبة الحياة بيروت (دت)، ص588– المقري، نفح الطيب، ج2، ص596.

[29].– أحمد الطوخي، المرجع السابق، ص 310.

[30]. أحمد مختار العبادي، دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي، بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، ندوة الحضارة الإسلامية 1976 م ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 2000 م ، ص90

[31].– ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص 96.

[32]. – حسن الوركالي، شيوخ العلم وكتب الدرس بسبتة ، منشورات جمعية البحث الاسلامي ، تطوان المغرب 1984 ، ص 100.

[33]. –عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، في الاندلس ،ج1 مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ، ص184– حنا الفاخوري ،تاريخ الأدب العربي ،ط1 المطبعة البوليسية لبنان 1990 م ، ص 215.

[34].– ابن خلدون عبد الرحمان ، المقدمة، دار الفكر للطباعة و النشر بيروت 2001 م ص825

[35]. –المقري، نفح الطيب، المصدر السابق ج1، ص 632،– عمر موسى باشا، الآدب في بلاد الشام، ط1 مكتبة العباسية، دمشق، 1972 م ص 539

[36]. –عبد العزيز سالم، قرطبة، المرجع السابق، ص 187.

[37]. –محمود رزق سليم، الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ،دار الكتاب العربي مصر 1957م ، ص 89.

[38].– ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص 201

[39]. –المقري، نفح الطيب، ج3، ص122.

[40]. –علي أحمد ،الأندلسيون و المغاربة في بلاد الشام ، دار طلاس للدارسات و الترجمة دمشق 1989م ص 253

[41]. –محمد الغوثي بن سنوسي، الأصول العميقة لمعايير التناسق في العمارة الدينية الإسلامية بالمغرب العربي، أطروحة دكتوراه، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان 2000 م ، ص277

[42]. –عبد العزيز سالم، قرطبة، ج2، المرجع السابق، ص 63 .

[43]. –حر عبد العزيز سالم ،بحوث مغربية ومشرقية في التاريخ و الحضارة الاسلامية ، ط1 مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية 1997 م ، ص 201.

[44].– سحر عبد العزيز سالم، نفسه، ص202.

[45].– عبد العزيز سالم، قرطبة، ج2 المرجع السابق ، ص64.